

وقف المستشار الدكتور محمد شوقي الفنجري

الإدارة العامة للدراسات العليا والبحوث والعلاقات الثقافية

جائزة خدمة الدعوة و الفقه الاسلامي

بحث في موضوع

# الفكر الإسلامي بين الإفراط والتفريط

## تيارات الفكر الاسلامي

### 1- التيار السلفي

بحث مقدم لنيل جائزة خدمة الدعوة والفقه الاسلامي لعام 2015

مقدم البحث / ضاحي ابراهيم اسماعيل سلطان

مارس 2015

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين له الحمد الحسن والثناء الجميل والصلاة والسلام على خير الخلق اجمعين سيدنا محمد النبي الامين وعلى اله واصحابه ومن تبع سيرته وسار على نهجه الى يوم الدين وبعد فإن الإسلام قد أولى عناية فائقة بالفكر والمحافظة عليه من كل شئ يؤدي به إلى الانحراف والزيغ واهتم اهتماماً بالغاً بآلة الفكر وهي العقل، ودعى إلى التفكير الذي يقود إلى ما ينفع الإنسان من معرفة الله وخشيته والانقياد له سبحانه وتعالى حيث كثر الحث في كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار، ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيصة المعارف والفهوم، وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبه لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره

ولذلك يُلاحظ في كتاب الله العزيز آيات كثيرات تدعو إلى التفكير وإعمال الفكر والعقل، وأن هذا التفكير وإعمال الفكر والعقل هو الذي يقود إلى الإيمان وتوحيد الله جل وعلا وخشيته، وأنه سبب زيادة الإيمان والآيات الكثيرة تؤكد على هذا المعنى مما يبين بجلاء أهمية الفكر والتفكير وإعمال العقل الذي يكون سبباً في نبذ التقليد الأعمى، والتجرد للحقيقة والابتعاد عن التعصب للآراء وماعليه الآباء إذا كانوا على ضلال.

فمساحة حرية الفكر في الاسلام واسعة ومكفولة للانسان وكل ما هنالك انه لا يجوز لاحد ان يمس حرمة المقدسات الدينية اذ العبث بهذه المقدسات وعلى رأسها النصوص الدينية المقطوع بصحتها كالوحي القراني والسنة الصحيحة بأي شكل من الاشكال بهدف تغييرها او تبديلها بالحذف او الاضافة او السخرية منها محاولات مرفوضة بل وأثمّة , وتعد عدوانا على النظام العام في المجتمع بالاضافة الى كونها اثماً دينياً ولذا كان على المصلحين مسؤولية عظيمة تجاه هذا الدين الحنيف في ابراز معالمه وتجليتها وازالة ما علق بها من غبار الافراط والتفريط والغلو والتقصير

واسهاما في تقريب مفهوم الفكر الإسلامي وتصحيح الرؤية المغلوطة التي شاعت حوله  
نحاول في هذا البحث الموجز الاطلاع على هذا الفكر الاسلامي العريق اصله الباسق ثمرة  
وذلك في مبحثين على النحو التالي

المبحث الاول وفيه اتعرض لمفردات البحث وذلك في مطلبين الاول منهما حول مدلول  
مصطلح الفكر في اللغة والاصطلاح والاستعمال القراني والنبوي ولدي العلماء وفي  
المطلب الثاني اتناول مدلول لفظي الافراط والتفريط ثم اعرج على اسباب تحقيق التوازن  
الفكري ووسائل حماية الفكر من الافراط والتفريط

وفي المبحث الثاني اتناول وسطية الفكر الاسلامي في مطلبين اتعرض في اولهما لمدلول  
الوسطية وادلتها وضابطها ومظاهرها ثم اتناول في المطلب الثاني مفهوم الانحراف الفكري  
وتاريخه واسبابه ومظاهره واهم التيارات الفكرية التي تتنازع الخريطة المعرفية في العالم  
الاسلامي ومنها ( التيار السلفي ) ثم خاتمة البحث واهم توصياته

أسأل الله تعالى ان يعلمنا ما ينفعنا وان ينفعنا بما علمنا انه على ما يشاء قدير وبالإجابة  
جدير وهو نعم المولى ونعم النصير

كتبه / ضاحي ابراهيم اسماعيل سلطان

كفر الشيخ - مصر - مارس 2015

## - التيار النصي (السلفيين)

يعد لفظ السلفية من أكثر الالفاظ ترجحاً عند الباحثين والمفكرين قديماً وحديثاً فكثيراً ما نجد استعمالات لهذا اللفظ في معان غامضة ودلالات مبهمة فاطلقه ايم منظور على من تقدم من الالباء وذي القرابة ولذا سمي الصدر الاول من التابعين بالسلف الصالح بينما يرى الشهرستاني ان هذا اللفظ يطلق على مذهب اهل السنة بينما يرى انور عبدالمالك انه يطلق على ما يمكن تسميته بالاصولية , الى غير ذلك من الاستعمالات التي لا تخضع الى وضوح مفهومي دقيق .

ويمكن القول بان معظم اصحاب المعاجم اللغوية قد اتفقوا على ان المراد بالسلف "الجماعة المتقدمون" واستدلوا بقول الله تعالى {فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين} (1)

ولكن سرعان ما اكتسب هذا اللفظ معنى اصطلاحياً حيث صار يطلق على احدى الطوائف الدينية التي اختطت لنفسها منهجاً معيناً للوصول الى الحقيقة الدينية وهو ايثار السمع على العقل والاقتصار على الدلالة الظاهرية للنصوص الشرعية رافضة بذلك التأويل والاحتكام الى العقل ومقاييسه , وعلى هذا الاساس صار مصدر العلم عند هذه الطائفة : اية محكمة وحديثاً مسنداً ولا ادري التي تعد من العلم عند السلف مستدلين بقول انس بن مالك "اذا ترك العالم لا ادري اصيبت مقاتله" (2)

فهناك من يرون في "السلف والسلفيين" التيار المحافظ والجامد بل والرجعي في حياتنا الفكرية , وهناك من يرون في "السلفية والسلفيين" التيار الأكثر تحرراً من فكر الخرافة والبدعة ومن ثم الأكثر تحرراً واستنارة في مجال الفكر الديني بالذات , وهذا الغموض او عدم التحديد الذي يحيط بمضمون مصطلح السلفية لم ينشأ من الوهم او الفراغ , ذلك ان من الذين ينتسبون الى "السلفية" من هم بالفعل محافظون وجامدون بل ورجعيون ,

---

(1) الزخرف الاية 56

(2) د سليمان الشوايثي " مفهوم السلف والسلفية قديماً وحديثاً" ص 3

ومنهم من هم في طليعة المنادين بالتجديد الديني وضرورة فك اسار العقل من قيود الخرافة والبدع والتقليد , كما ان منهم من "سلفه الصالح" الذ يترسم خطاه ويحتذي نهجه الفكري في علماء عصور الانحطاط والركاكة التي مرت بامتنا تحت حكم المماليك والعثمانيين , ومنهم من يرى "سلفه الصالح" في اعلام عصر الابداع والازدهار الذ عرفته امتنا وبلورت فيها حضارتها "القومية العقلانية المستنيرة" قبل انحطاط عصر المماليك ومنهم من يتنكر للعقل كقوة انسانية عندما ينكر عليه القدرة على البرهنة والحكم والتمييز بين ما هو حسن ونافع وما هو ضار وقبيح ويحصر القدرة على ذلك في النصوص والمأثورات وحدها ... على حين ان من السلفيين من يعلي مقام العقل ويعزز من سلطانه حتى ليعتبره اجلّ القوى التي ميّز الله بها الانسان واعظمها ومن ثم يمنحه الاستقلال في مجال "عالم الشهادة" وفي مجال الحياة الدنيا , بينما يجعل السلطان للنصوص والمأثورات في نطاق "عالم الغيب" الذ لم ولن يدرك العقل كنهه وان كان هو الاداة في فهم ما جاءنا حوله من نصوص ومأثورات (3)

ثم ما يشترك في علمه الوحي " النصوص والمأثورات " والعقل ويشمل كل المجالات التي أباح الله فيها للعقل النظر واستخراج الأحكام من النصوص , سواء فيما ورد فيه نص , أو فيما لم يرد , فمجال العقل في المنصوص هو معرفة درجاتها من وجوب , وندب , وكراهة , وحرمة , وإباحة , وكذا معرفة عوارضها من عموم وخصوص , وإطلاق وتقييد , وإزالة التعارض بينها عن طريق الجمع والتوفيق , كالتخصيص والتقييد والتأويل , والترجيح بينها عند استحالة الجمع , أما مجال العقل فيما لم يرد فيه نص , فباستعمال القياس , والاستحسان , والاستصلاح , والعرف , وغيرها من أنواع التفكير والنظر الاجتهادي القائم على إدراك العلل والأسباب والمقاصد الشرعية . كما أن التشريع ليس نصوصا وأحكاما معزولة عن حياة الناس وواقعهم , بل هو نظام عملي , لذا كان في حاجة إلى الفكر كأداة للربط بين الشريعة والحياة والتفكير في هذا القسم هو الذ يجعل الشريعة حيوية وخالدة , وقائمة إلى يوم الدين , بما تفتح من آفاق معرفية وفكرية في مختلف الميادين الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . وقد ترك العلماء الأوائل تراثا فكريا زاخرا

كفقه التّوازل والأحكام السلطانية والقضائية، يشهد على سعة المجال الفكري واتساعه ليشمل سائر ما يحتاجه الإنسان في الآجل والعاجل (4)

ان من اهم الاسس المنهجية للفكر الاسلامي استناد الى الاصل والانفتاح على العصر فأما الاستناد إلى الأصل، فيعني أولا الاستمسك بعقيدتنا وشريعتنا، بمصدرها الخالدين: كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم. وهو أيضا التمسك بما أجمعت عليه الأمة وأئمتها وعلمائها المعبرون، وخاصة من الصحابة والسلف المتقدمين. وهو يعني الاعتزاز بترائنا العلمي والحضاري، ومواصلة البناء عليه، من خلال استدامة التعامل معه، والاستمداد من إيجابياته ومزاياه.

وأما الانفتاح على العصر، فمعناه أولا الوعي والمعرفة العلمية بأحوالنا وبذاتنا في هذا العصر، والوعي بالمتغيرات التي طرأت على أمتنا ومجتمعاتنا، سواء في أوضاعنا الاجتماعية والاقتصادية، أو في أوضاعنا السياسية والعسكرية، أو في أوضاعنا الفكرية والثقافية، أو في أوضاعنا التعليمية والإعلامية، أو في حياتنا الفردية والأسرية...

فاتصالنا بالعصر، يتمثل أولا في وعينا بعصرنا نحن المسلمين، أي بتغيراتنا ومستجداتنا الذاتية. وهذا يقتضي أن كل ما يصدر عنا من تشخيص وتحليل، أو تقويم وتقدير، أو اجتهاد وإفتاء، يجب أن يكون مبني على حقيقة ما نحن عليه من أحوال في آننا وواقعنا، وليس بناء على ما تَكُونُ في أذهاننا عن أسلافنا وماضينا وتاريخنا. ففي واقعنا وبداخلنا اليوم متغيرات كثيرة وعميقة، لم تكن من قبل. منها ما هو إيجابي، ومنها ما هو سلبي. فيجب الوعي بكل ذلك وحسن تقديره ومراعاته.

واتصالنا بالعصر، يعني ثانيا الوعي المماثل بالعالم المحيط بنا والمتداخل معنا، بما يُمكن من رؤيته رؤية موضوعية صحيحة، ليس فيها إفراط ولا تفريط. رؤية تستوعب الصورة كاملة، بأطرافها وسائر مكوناتها، وبجميع ألوانها. والاتصال بالعصر يعني التفاعل معه ومع أهله من غير المسلمين، تفاعلا إيجابيا، مؤثرا ومستفيدا. فعندنا الكثير مما نعطيه لعصرنا

---

(4) د عبد الكريم حامدي "ضوابط التفكير المعرفي في التصور الاسلامي" مقال منشور على الانترنت

ولشعوب زماننا، وعند غيرنا أيضا الكثير مما نفتقده ونحتاج إليه. ولا غضاضة في أن نتعلم ونستفيد ونأخذ من غيرنا، بل الغضاضة والغلط هو ترك ذلك وتفويته. (5)

ان تيار التقليد والمحاكاة للموروث اغلب زادهم الفكري هو ابن لقرون التراجع والجمود المملوكية العثمانية وهو تيار يضم فصائل منها "النصوصين" وهم الذين وقفوا عند ظواهر النصوص ودلالاتها عازلين اياها عن ملابساتها وعن مقاصد الشريعة والتشريع المبتغاة من هذه النصوص ، واذا كنا نعرف لهذا الفصيل فضله في الحفاظ على التراث والدفاع عنه امام الوافد الغربي الذي اراد اقتلاعه والحلول في موقعه ، الامر الذي حفظ للامة ولثقافتها التواصل مع ماضيها الحضاري ومكّن لحركات الاحياء والتجديد ، الا انه قد ظل عاجزا عن صياغة الخيار الحضاري والنموذج التجديدي القادر على منافسة النموذج الغربي لا لقصور في عقول اعلام هذا التيار ولكن لعيب في بضاعتهم الفكرية ، وان التيار النصوصي وان كان قد نقض عن عقائد الدين كثيرا من البدع وعن تصورات العامة كثيرا من الخرافات فان جموده عند حرفة ظواهر النصوص قد اورثه العجز عن ابداع المشروع الحضاري الذي يصوغ الانسان المقاوم للزحف الغربي (6)

ولعل من اهم صفات هذا التيار التعصب وهو مظهر من مظاهر الانحراف الفكري ، وهو " شيمة من شيم الضعف ، وخلة من خلل الجهل ، يُتلى بها الإنسان ، فتعمي بصره ، وتُغشي على عقله ، فلا يرى حسناً إلا ما حسن في رأيه ، ولا صواباً إلا ما ذهب إليه أو تعصب له "" وسواء كان تعصب المتعصب لرأي نفسه ، أو لرأي عالم مجتهد ، أو لرأي إنسان ليس أهلاً للإمامة ، وإن كان إماماً في نظر المتعصب ، أو كان جماعة أو طائفة ، فكل ذلك من ألوان التعصب حيث لا يعترف المتعصب إلا برأيه ، أو برأي شيخه وإمامه ومعلمه ومذهبه ، ويُلغي آراء مُخالفيه ، ولا يعترف بها (7)

---

(5) د احمد الريسوني "الوسطية الفكرية واسسها المنهجية " بحث منشور على الانترنت / <http://www.raissouni.ma>

(6) د محمد عماره " ازمة الفكر الاسلامي المعاصر " المرجع السابق ص 60, 61 بتصرف يسير

(7) بدون اسم الباحث " الانحراف الفكري " مقال منشور على الانترنت على موقع جامعة الملك سعود <http://faculty.ksu.edu.sa>

إن الغالبية الساحقة يعطون ثقتهم لمن يتصورون أنه قد وصل إلى المعلومة بطريق الحس أو بأقرب الطرق إلى الحس، وأن هذا الموثوق صادق معه إما لملازمته لصفة الصدق، أو لأنه صاحب مصلحة في الصدق، ولعل قوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (8) يصدّق هذه الفكرة، فالناس بشكل عام ليس لديهم أدوات العلم -بمعنى القطع والتحقق- مما يسعون إلى التحقق منه، ولهذا نجد أن إقبال الناس على القيادات الفكرية إقبالاً طبعياً، لا يحتاجون إلى مَنْ يدلهم عليه، بل ربما صح القول بأنه فطرة. فالناس إذا لم يجدوا أمامهم مؤهلاً لقيادتهم فكرياً، صنعوا لهم قائداً على مواصفاتهم الخاصة، ولعل هذا هو معنى قول عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا). (9)

ولك أن تتأمل في قوله - صلى الله عليه وسلم -: "اتخذ الناس"؛ فالناس إذا لم يكن المؤهل لقيادتهم فكرياً أمامهم، اتخذوا من تلقاء أنفسهم قائداً فكرياً ولو لم يكن مؤهلاً. والناس يعرفون الموهوب والذكي، ومن يملك القدرات الثقافية والخطابية التي تمكّنه من التأثير وجذب الأتباع، لكن ليس كل مَنْ يستطيع تكوين قاعدة جماهيرية بهذه الصفات هو الأمثل حتماً لقيادة الأمة فكرياً. (10)

وتزداد خطورة التعصب للرأي عندما يستخف المتعصب بآراء الآخرين وبما لديهم من أدلة وحجج ويرى أن منهجه في جميع المسائل والقضايا هو الأصوب، ويجبر على رأي كل من يخالفه، ولا يسمح لمخالفه بنقده أو تقديم النصح له، ويعمل على فرض رأيه على الآخرين بالقوة، ويعمل على إقصاء الآخرين من خلال اتهامهم بالجهل، أو بالكفر والمروق عن الدين، وهذا من الإرهاب الفكري الذي لا يقل خطورة عن الإرهاب المادي المحسوس.

فالتعصب للرأي "يجعل الناس يصابون بنوع من الخوف الشديد من هجوم المتعصبين ضدهم، أو معهم، إذا كان هناك خطأ حصل، أو واقع سيئ قائم ينبغي

(8) سورة يوسف الآية 21

(9) صحيح البخاري كتاب العلم باب كيف يقبض العلم الحديث رقم 100

(10) د محمد السعيد "التوازن الفكري" قضايا فكرية مقال منشور على الانترنت موقع مجلة حراء العدد 44 hiramagazine.com



إزالته ، ولا شك أن هذا يؤدي إلى عدم الإقدام والمبادرة ، والاعتراف بالخطأ ونقده ، والمطالبة بالعودة للحق واتباعه والمتعصب لفكره ، والمتشبت برأيه ، المصّر عليه ، وإن كان خطأ هو بعيد عن الاعتدال ، مجافي للوسطية ، وبذلك فهو مُتطرف ، " والتطرف حالة مرضية يُصيب المبتلى بها شعور بالنقص ، أو شعور بالتعالي ، فالمتطرف إن شعر بالنقص تولّد لديه الحقد والكراهية للغير ، أفراد وجماعات ومجتمعات ، وإن شعر بالتعالي ظن أنه على صواب وهدى ، وأن غيره مخطئ ، أو على ضلال ، بل إنه يعتبر نفسه مالكا للحقيقة مطلقاً ، وغيره جاهلاً بها مجانباً للصواب مطلقاً وهذا يُمثل داء اجتماعي يُهدد المجتمع في وحدته ، ويتنافى مع الانتماء الوطني ، ويزعزع الأمن الاجتماعي ، فهو يقوم على الغلو والتطرف في التعلق بالجماعة ، واعتبارها مُركز الانتماء ، ويفرض روابط تُخالف الدين ، وتتنافى مع الوحدة الوطنية . والتعصب مظهر من مظاهر الانحراف الفكري ، وخطورته على الأمن الفكري واضحة وجليّة ، فهو يجر على الأمة الويلات ، ويهدم عُرى الوحدة ، ويُقسّم الوطن ، ويُشعل فتيل الفتنة بما يثيره من الفرقة والتشردم .

(11)

ان للكلمة الصادقة الجريئة دورا عظيما في تمييز الخبيث من الطيب وليس ثمة واجب اقدس من واجبا تجناه هذه الكلمة , وما اكثر شهداء الكلمة عبر التاريخ ... كان سقراط شهيدا في معركة الحقيقة , والمسيح شهيدا في معركة المحبة , ومحمد شهيدا في معركة التوحيد الكبرى , وعشرات ثم مئات من افذاذ البشر عبّدوا طريق الحضارة بالكلمة ثم قدّموا ارواحهم العظيمة قرباناً لها , وليس يضيق بالراي المخالف سوى مغرور صغير , وانما يفتح قلبه للرأي المعارض كل عظيم صادق العظمة مضيء الوجدان . (12)

إن الأمل الذي هذه النخبة إلى أن تكون حاضنة صحيحة وعملية لدعاة الفكر الوسطي المعتدل الذي يرى في الإسلام مشروعاً يتكامل مع السعي الإنساني وليس نقيضاً له ويتحمل مسؤولياته في مواجهة التطرف والتعصب سواء ظهر عبر المشروع الصهيوني المدمر أو الحركات الخوارجية المتطرفة التي استحلت قتل العباد ونهب البلاد في سبيل إنجاز

---

(11) بدون اسم الباحث " الانحراف الفكري " مقال منشور على الانترنت على موقع جامعة الملك سعود <http://faculty.ksu.edu.sa>

(12) خالد محمد خالد "الدين للشعب " سلسلة كتاب اليوم عن مؤسسة اخبار اليوم طبعة 1976 ص 93 , 94 بتصرف يسير

أفكارها السياسية. وقد أطلق فقهاء الأمة جملة من المواثيق الواضحة بهدف حماية المسلم في دمه وماله وعرضه ومنعت التعرض لأهل القبلة مهما ظهر منهم الاختلاف في الرأي، في حين نظمت علاقة المسلم مع أبناء الأديان الأخرى على قاعدة الحوار والاحترام مع أهل الكتاب وسنّت في نظرائهم سنة أهل الكتاب، ووفرت للمختلفين دينياً وثقافياً فرصة المشاركة في بناء الدولة والحياة إلى الحد الذي مكنهم من المساهمة بوضوح في بناء الحضارة الإسلامية. إن الوسيطيين في العالم الإسلامي اليوم هم الأكثرية الصامتة التي تشكل منها المجتمعات ويجد المسلم نفسه بالفطرة رافضاً للتطرف والتعصب والانفلات والتسيب، ومن خلال القرآن والسنة فإن المسلم قادر على فهم معنى قول الله سبحانه {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} (13) (14)

أبناء هذا التيار - الذين يُسمّون سلفيين أحياناً- على عكس "الوجدانيين" أعملوا عقولهم في إسناد النصوص، ومَحَصُوا فيه، وهم من ألد أعداء التيار الثاني، والذين تتراوحُ قهْمهم ما بين مبتدع وكافر مروراً بالشرك.

يشن أصحاب هذا التيار "ثورة بيضاء" ضد المبتدعة، وسلاحهم التغيير باليد، والمطبوعة التي تنجرأ على التكفير ولا تتوانى عن مهاجمة "المبتدعة" وملاحقتهم لو أمكن، ولا مكان لد "الأخر" المبتدع لأن تصوراتهم ذات بُعد عقدي لا يسمح فيه للآخر بالمخالفة، فهو إما "ولاء" وإما "براءة" ولا يوجد منزلة بين المنزلتين، لذا فإن دعوتهم تحمل نفس الجهاد المقدس بـ "اللسان". لكن هذه الثورة "النصية" تظل ثورة بيضاء إلى أن يتبناها نظام سياسي يريد خدمة مصالحه، والتي هي محض ذاتية، فيقوم بثوير هذا التيار ليريق دم غيره بحجة الخلاف "العقدي" مع الآخر، والضحية في الغالب هو مسلمٌ مخالف في النهج الفكري (15)

ويجب القول إن التيارات المتشددة تولت تقديم أدلة من ظاهر النص شوشت على المسلمين صفاءهم الأول وأعادت الجدل في مسألة العلاقة بالآخر المختلف فكراً حيث

---

(13) سورة الانبياء الآية 107

(14) مروان الفاعوري "الوسطية: التأصيل والتطبيق" بحوث ندوة أثر القرآن في تحقيق الوسطية ودفع الغلو ص 50

(15) د اسامه القاضي المرجع السابق ص 4

يتم على سبيل المثال إطلاق القول بمظاهر كثيرة من الشرك في الأقوال والأفعال ثم يتولى فريق آخر تقديم تأويل ظاهري للنص {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} (16) وبذلك أريق دماء وأرواح كثيرة وشهد العالم الإسلامي ارتفاعاً غير مسبوق في إراقة الدماء وانتهاك الحياة وقدم الأدلة لأعداء الأمة لوصم هذا الدين بالعنف والجبر والكرهية. (17)

إن الفارق بين التيار "النصي" و "الخوارجي" هو في درجة الثورية، فالـ"نصي" لا يلجأ للتصفية الجسدية لكنه لا يتوانى عن تصفيته "دينياً وشعبياً" وتصنيف الآخر "الضال المضل" على احتلال أسفل درك من النار حتى تطمأن نفسه بأنه انتصر في حربه "المقدسة" وضمن بهذا الجهاد الأبيض مكاناً علياً لأنه نافح عن "فهمه" لدين الله ويؤمن أرباب هذا التيار أن الأصل في الأشياء التحريم و ليس الإباحة، فلا بد للمسلم أن يحفظ أكبر كمية من النصوص التي تعينه على "شرعة" كل حركاته وسكناته، وليس فقط ما شك في شرعيته أو "حاك في صدره" من المستجدات، وبذلك يدخل في منطقة المكروهات عند الشارع من "كثرة السؤال". (18)

وعن الموقف من الدولة التي بلغت في الظلم مبلغاً عظيماً فقد اتسم هو الآخر بالتردد بين "الواقع الظالم الذي أصبح عادة مألوفة" وبين "مثل الشرع التي بلغت في تقديس العدل شأواً يأسر القلوب والعقول". .. فأقدم أعلام سلفية العصر الوسيط على نقد الدولة ومعارضتها لكنهم أحجموا عن نزع الشرعية عن جهازها الظالم، فدعوا لطاعته ونهوا عن الثورة ضده وارتكبوا في سبيل ذلك تحريجات للنصوص الآمرة بالنهي عن تغيير المنكر باليد والفعل بزعم أن تغيير الواقع يدعونا أن نقف عند أدنى مراتب هذا النهي واضعفاً .. ولم يميزوا بين الواقع الجديد المحقق للمصلحة والذي لا بد من تجاوز النصوص القديم لاجله وبين الواقع الجديد الظالم والمحقق للمفسدة وهو ما لا يجوز أن تطوع النصوص كي نضفي عليه شرعية الدين وقداسته , (19)

---

(16) سورة التوبة الآية 5

(17) مروان الفاعوري "الوسطية: التأصيل والتطبيق" بحوث ندوة أثر القرآن في تحقيق الوسطية ودفع الغلو ص 50

(18) د اسامه القاضي المرجع السابق ص 5

(19) د محمد عماره "تيارات الفكر الاسلامي" المرجع السابق ص 152

لكن موقف هؤلاء المعادي للثورة كطريق لازالة الجور الذي اعترفوا بممارسة الدولة له ،والمعاصي التي جأروا هم بالشكوى من شيوعها ومارسوا النقد لها والمعارضة لأهلها نقول ان هذا الموقف هو اثر من آثار تحويل الواقع الظالم الى أمر معتاد اصبح يمارس سلطانا على الفكر ، حتى دعا هؤلاء الأعلام الى تغيير الفتوى من مشروعية الثورة الى التحذير منها تبعا لتغير هذا الواقع ولربما كانت تجارب الثورات الفاسلة عبر تاريخها الطويل وما جرّته من محن وما أسالت من دماء وما عطلت من مصالح .. الخ .. ربما كانت هذه التجارب جزءا من الخلفية التي افرزت هذا الموقف المعادي للثورة عند أعلام السلفية النصوصية . ويلفت النظر ان الحركة السلفية كلها تتفق في هذا الموقف المعادي للثورة ، فيتفق الاشعري وابو يعلى الفراء وابن تيمية وابن القيم واحمد ابن حنبل على ان "من غلب بالسيف حتى صار خليفة وسمى امير المؤمنين فلا يحل لاحد يؤمن بالله واليوم الآخر ان يبيت و لا يراه اماما عليه براكان او فاجرا فهو امير المؤمنين " ، فهو هنا لا يبيح للناس استخدام السيف لمقاومة الوالي الفاجر الذي استبد بحكمهم حتى ولو كان استخدامهم للسيف ردا على استخدامه له في الاستبداد بما لا يستحق من السلطة و السلطان وهذا يؤكد ان هذا الاتجاه نحو الاخذ بادنى مراتب الانكار انما هو وليد الواقع الظالم الذي ترك بصماته على فكر هؤلاء الاعلام منذ تبلور حركتهم وحتى صحتها في العصر الوسيط (20)

باب الاجتهاد لا يمكن فتحه إلا بـ "مفاتيح القدماء" فهم من أغلقوه- على الأقل حسب فهم هذا التيار- ولا يمكن لهذه المغاليق أن تفتح إلا بشقّ الأنفس، وبضمانات عدم الحياد عما انتهجه السلف الذي لم يترك شيئا للخلف، وضمان عدم استخدام أدوات معرفية جديدة "ابتداعية" أو "استغرايية كافرة"، وباب الاجتهاد محصور في استقدام "المجتهد الأريب" للأدلة التاريخية لعلماء عاشوا تاريخهم- رغم أنهم هم أنفسهم اختلفوا في كيفية التعامل مع الحادثة الواحدة وفي فهم النص- وما على هذا "المجتهد المشبع اتباعاً" إلا أن يستعير من حوادث التاريخ، ويجتهد ولو على حساب "لوي عنق النص" والتمادي في استخدام أساليب "القياس"، ولو اضطر الأمر أن يثبت صحة وحليّة بناء البنوك وإنشاء سوق أوراق مالية وتعاملات نقدية بحادثة عابرة منذ أكثر من اربعة

عشر قرناً أو الإستدلال على الصلاة في الطائفة بفتوى للأحناف فيما يسمى "المعقول الفقهي" فيمن صلى في الهواء، وعلى الـ "مجتهد" أن ينسى كل الفوارق المدنية، وتطور الدلالات الاصطلاحية، والمعرفية، ويهتّمش تاريخية الحادثة، ولا يعطي الواقعة التاريخية حقها من "الفهم الواقعي للتاريخ" ومن أسباب النزول، بما فيها من أساليب الانتاج والاستهلاك، والاتصال، والفهم المعرفي، وما يفرضه الواقع الصحراوي، ودرجة المدنية، والأهم من ذلك الفهم المقاصدي للنص. (21)

إن أحفاد أبو الفرج الحنبلي (795 هـ) الذي يؤمن بفضل السلف الذي يعيش في الأزمان الفاسدة كما يسميها على الخلف يتبنون مقولته: "وقد ابتلينا بجهلة من الناس يعتقدون في بعض من توسع في القول من المتأخرين أنه أعلم من كل من تقدم من الصحابة". إن هذا الأسلوب في الفهم المعرفي لا يفيد "فهم الذات" ولا يعيد طرح "الذات الحضارية" مرة أخرى بالزخم المطلوب. بل إنها تُفسر العقل والروح على العيش في "عقدة ذنب أبدية"، لأنه ببساطة لن يقدر الرجل مهما أوتي من "سعة الحافظة" أن يسع بالنصوص المحفوظة كل الكم الخيالي من التطورات اليومية والاقتصادية والتبدلات الفلسفية في السياسة والاجتماع وعلوم الإنسان والتكنولوجيا والفلك والطب. (22)

أما المنهج اللاوسطي القائم على رفض الحياة وإغفال حق الطاقات المختلفة الضرورية، وتكثيف العبادة في جانب على حساب الجوانب الأخرى، فحسبه أنالرسول رفضه، وأظهر شيئاً من الغضب عندما سمع به. وأظهر خروجه عن منهجهم للأمة آلهما. حتى تعلم الأمة طبيعة هذا الدين - ومن ثم - تعمل في إطار الوسطية العادلة. (23)

ان مثل هذا التيار لديه مرجعيه تاريخية معينه للاسلام وليس للاسلام ذاته , حيث تتجاوز هذه الجماعات مصادر الاسلام "قرآنا وسنة" الى فهم وتطبيقات بشر في فترات تاريخية معينه يرون انها هي الفهم الاصح والاكثر دقة للاسلام وما عداها ليس كذلك ,

---

(21) د اسامه القاضي المرجع السابق ص 5

(22) المرجع السابق ص 4

(23) د عبد الحليم عويس "الوسطية والسلام الفكري العالمي المرجع السابق ص 100

وهو ما يطلقون عليه فهم السلف الصالح للدين ومقاصده واحكامه , وهذا المنهج في حقيقته يعلي التجربة التاريخية على النظرية الاسلامية ويعلي فهم البشر على نصوص الوحي ويجعل المرجعية منحصرة في مجموعة من الفقهاء ويتجاوز القران والسنة ويخرجهما عمليا من اطار المرجعية او المصادر او الاصول ويجعل الاسلام ظاهرة تاريخية تم تطبيقها في زمان ومكان معينين منذ اكثر من الف عام ولا يحق للمعاصرين إلا إجتزار هذه النظرة وإعادة التطبيق بصورة حرفية في زمان ومكان مختلفين وكأن الاسلام ليس ديناً سماوياً وإنما تجربة بشرية , ومن ثم يرون انه لا يحق للمعاصرين الان الرجوع الى مصادر الاسلام وإعمال العقل فيها وفهمها فهما يحقق مقاصدها في هذا العصر , وكأن كل المجتمعات الاسلامية وكل العلماء الذين ظهوروا طوال القرون العشرة الماضية لم يكونوا مسلمين . انها رؤية تجعلهم مقتنعين بأن ما كان يصلح في القرن السابع الهجري في العراق يصلح وبالدرجة نفسها في القرن الخامس عشر في الشيشان او افغانستان وكأن الكون ثابت لا يتغير والمجتمعات جامدة لا تتحرك والمعطيات جميعها لا وجود لها . فكر جعل من من مقولات ابن تيمية التي اطلقها في مواجهة عدو محتل لارض المسلمين – الصليبيين – في القرن السابع الهجري صالحة للتطبيق على حكام المسلمين ومجتمعات اسلامية دون النظر الى انه اجتهاد عالم في زمان معين ومكان محدد وظروف خاصة غير موجودة الان وتجاهل تام للمصادر التي بنى عليها ابن تيمية فتاواه وبدون قراءة شاملة لكل ما قاله ابن تيمية , وانما عملية انتقاء تجزئية يقوم بها انصاف متعلمين (24)

أن علينا أن نتلمس دائماً حجم المرونة الذهنية والمرونة في الطرح وفي الخطاب وفي برامج الإصلاح والمعالجة؛ فالضغوطات التي تمارس علينا من مختلف الجهات، وأوضاع التأزم والتخلف المختلفة تولّد لدينا الكثير من الخوف غير السائع، وتدفعنا باتجاه الجمود والانغلاق، كما تدفعنا باتجاه استخدام الضغط وسيلة في ترشيد مسيرتنا عوضاً عن الثقة والإقناع دون أن نشعر بذلك، ودون أن نشعر بعدم ملائمة هذا لروح العصر وللذائقة الثقافية الجديدة. ولهذا فإن الخطاب الإسلامي –لدى هذا

---

(24) د نصر محمد عارف "المصادر الفكرية لجماعات الجهاد الوظيفي" بحث منشور بمجلة السياسة الدولية العدد 98 أكتوبر 2014 ص 83 بتصرف يسير

التيار- يميل إلى أن يكون سلبياً ضابطاً أكثر من أن يكون مبادراً محقّقاً ومنتجاً للأفكار والمفاهيم والمشروعات والبدائل؛ مع أن الحضارات لا تقوم في أول انطلاقتها أبداً على المنع والسلب والضبط.. إنها تقوم بناء على المبادرة والانطلاق والعطاء والمساهمة.. إنها أشبه بينابيع صغيرة، تتجمع فتشكل نهراً متدفّقاً، ثم نجد أنفسنا بعد مدة في حاجة إلى تصفية ذلك النهر وتنقية مائه من الشوائب. (25)

إن الفكر الإسلامي سوف يكتسب من المناعة والحصانة والقابلية للاستمرار على مقدار ما يملك من التوازن في بنيته العميقة بين الثوابت والمتغيرات وبين المثالية والواقعية، وعلى مقدار ما يملك من المرونة في الفهم والاستيعاب وفي تقديم الحلول. إن العواصف الهوجاء تقتلع وتحطم الأشجار العملاقة على حين أن السنابل والحشائش تُبدي قدرة أكبر على الصمود والمقاومة والسبب في هذه المفارقة هو المرونة التي في الأخيرة والتصلب الذي في الأولى. واليوم توضع قواعد وكتل مطاطية في أسفل الأبراج والعمارات الشاهقة كي تقاوم الزلازل الأفقية؛ حيث يمنحها المطاط المرونة الكافية للتجاوب مع اهتزازات الزلازل على شكل امتصاص لها. إن المرونة لا يصح أبداً أن تعني التنازل عن المبادئ ولا التساهل تجاه المحرمات، كما لا يصح أن تعني إقرار الباطل وممالة الظلم، ولا أن تعني تغيير الاتجاه... إن هذه الأشياء لا تشكل أبداً مرونة أو تكييفاً صحيحاً، إنها انحراف واضح تحب مقاومته والتصدي له. إن المرونة المنهجية تعني في نظري الآتي:

حسن الاستماع وحسن تفهم ما لدى الآخر. إن الأمة في أزمة متشعبة ولو لم يكن من معالم تلك الأزمة سوى ابتعاد عدد كبير من أبنائها عن جادة الالتزام بتعاليم الشريعة الغراء وسوى تدني مكانتها العالمية بين الأمم لكان ذلك كافياً. حين يكون المرء في أزمة؛ فإن عليه أن يفتح عشر عيون وعشر آذان لالتقاط أي فكرة أو أي حل أو أي أسلوب أو أي أداة في إمكانه أن يخفف من غلواء الأزمة التي يعاني منها. إن مشكلة: كمشكلة البطالة، أو رداءة مستوى خريجي الجامعات، أو مشكلة تسلط الحكومات، أو انتقال السلطة بسلاسة وعلى أسس مشروعة، أو مشكلة ضعف الالتزام، أو تفكك الأسرة المسلمة بالتدريج... أقول: إن مشكلة كهذه المشكلات لن نستطيع الحصول لها على حلول من خلال استعراض التاريخ وتجارب الأجداد والآباء لأن سنة الله - جلّ وعلا- مضت ألا تتسع رحلة حضارية سابقة لمرحلة لاحقة. فالحلول التي عثر عليها الناس لأي مشكلة من هذه المشكلات قبل خمسة قرون لن تصلح لحلها اليوم. كما أن ما نحصل

عليه من حلول ناجعة وعبقورية لمشكلاتنا لن نحل عين المشكلة بعد قرنين من الزمان. ولن نجد حلاً لأي مشكلة من المشكلات آنفة الذكر لدى الغرب أو لدى اليابان أو الصين...؛ لأن أي حل من الحلول يتركز على نوعية معينة من المعطيات الثقافية والسياسية وهذه النوعية تختلف اختلافاً واسعاً عن عالمنا الإسلامي وبين الدول غير الإسلامية المعاصرة لنا. لكن سنجد في التاريخ وسنجد لدى الآخرين نواة للحل؛ تحتاج إلى إنضاج وإنماء أو نجد فكرة ذكية تحتاج إلى تطوير أو أقلمة وتوطين. وهذه وتلك تحتاجان إلى عقل مرن ومحترف في الاقتباس ودمج الأفكار والطرق والمنهجيات المتفاوتة والمتباينة. ولن ينفع الذكاء وحده في الشأن بل لا بد من البحث العلمي المتقن والمتخصص والمستفيض، وهذا ما لم يتم الاعتراف به حتى الآن! (26)

كما تعني المرونة الذهنية والمنهجية -أيضاً- القدرة على إدراك الفرق بين ما هو موجود في حياتنا بسبب الالتزام بالأمر الشرعي وبدافع من الالتزام بأمر الله، وبين ما هو موجود نتيجة عادات وتقاليد أنتجتها ظروف واعتبارات تاريخية، أو أنتجها التوسع في مبدأ (سد الذرائع) بسبب فهم جزئي أو زمني أو مؤقت للمصالح والمخاطر التي تترتب على سلوك معين.

ويقدم لنا وضع المرأة المسلمة نموذجاً لهذا؛ حيث إن كثيراً مما يحتاج إلى الإصلاح في حياة المرأة المسلمة ومهامها العامة نشأ نتيجة مواصفات اجتماعية معينة مالت بها نحو الغلو أو نحو التفريط والتساهل بعيداً عن المنهج الرباني الأقوم. قد يكون من الأسس النافعة في تصور إصلاح أوضاع المرأة المسلمة النظر إلى أن الأصل هو تطابق كل ما يُطلب من النساء، وكل ما يحل لهن، وكل ما يصح لهن عمله وممارسته مع ما هو ثابت للرجال؛ إلا ما جاءت النصوص الصريحة بإثبات خصوصية لهن فنصير إليه، ونأخذ به. وإذا اختلف أهل العلم الموثوقون والمتخصصون في مسألة هل هي خاصة بالرجال أو النساء - نظرنا إلى خلافهم على أنه باب من أبواب التوسيع على الأمة ورفع الحرج عنها. ومثل ذلك يقال في اختلاف أهل العلم في كون عمل من الأعمال - يجزّ مفسده أو لا. والذي يظن أن الأخذ بالأحوط وبالقول الأشد حذراً وبالأميل إلى التشدد - يحل مشكلات الأمة أو يساعد الناس على مزيد من الالتزام - يكون واهماً؛ حيث إن مثل هذا قد يدفع كثيراً من الناس بعيداً عن منطقة التدين كلها بما فيها من ألوان صفراء وحمراء، وواقعنا مملوء بالشواهد على هذا. (27)

---

(26) د عبد الكريم بكار " المناعة الفكرية " مقال منشور على الانترنت <http://www.saaaid.net>

(27) المرجع السابق



وايضاً تعني المرونة القدرة على إعادة ترتيب الأولويات الدعوية والإصلاحية والإنمائية. حين نقول: إن إصلاح هذا الأمر يشكل أولوية فإن هذا يعني أننا ندرك خطورة استمراره، وعظم حاجة الناس إليه، وارتباط صلاح مسائل أخرى بصلاحه. وهذه مهمة شاقة جداً، وتحتاج إلى فهم عميق للسنن الربانية وللتداعيات المنطقية القائمة بين جوانب الحياة المختلفة. في معظم البلاد الإسلامية تتمثل الأولوية الإصلاحية في تعليم الناس أمور دينهم ، وفي حل أزمتهم الاقتصادية المتراكمة والمتعاضمة. وفي بعض البلدان الإسلامية يشكل الإصلاح السياسي أولوية. ويشكل إصلاح النظام التعليمي في بعض الدول أولوية مطلقة وهكذا... ولا يعني القول بأولوية شيء من الأشياء تعطيل الاهتمام بغيره من جوانب الحياة المختلفة؛ لكنه يعني أن نصرف عليه من الوقت والجهد أكثر مما نصرفه في غيره. (28)

إن من أخطر الأمور أن تتحول أفكار بشرية في نواحي الحياة إلى دين مقدس ، يحاسب الناس عليه، فالنتيجة الطبيعية لذلك إدخال فساد كبير على مبادئ الدين الحق وتشويهه وتحريفه عن الغاية التي جاء من أجل تحقيقها في المجتمع الإنساني، والنتيجة الأخرى تقييد الفكر عن الحركة والاجتهاد أمام تلك القضايا بدعوى أنها مبادئ معصومة لا يجوز الاجتهاد فيها. ومن المؤسف أن كثيراً من الباحثين في الفكر الإسلامي القديم والحديث وقعوا في هذا الخطأ، إذ أنهم عندما يتحدثون عن الفكر الإسلامي يخلطوا به مبادئ الإسلام، القرآن الكريم والسنة الشريفة، دون أن يضعوا خطاً فاصلاً بين الأصول الإسلامية والفكر المنتج أو التفاسير التي تدور حولها. "والحال أن الوحي من حيث هو علم الله الكامل لا يمثل ذلك الماضي ولا الحاضر ولا المستقبل، بل هو يمثل الحقيقة الأزلية التي لا ترتبط بالزمن لا تخضع له، فهو ليس تاريخاً للبشرية أو حركة حضارية تختص بمرحلة من مراحل تطور تاريخ أمة من الأمم... وإنما هو شريعة خالدة إلى يوم الدين، إذ لا نبي بعد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، نعم إن الفكر الإسلامي الذي نقصد إلى جانب الوحي، لا بد له أن ينطلق من ضوابط الإسلام، ولكنه بالرغم من ذلك فإنه عبارة عن مواقف اجتهادية لعلماء الإسلام ومفكره، لا بد أن يدرك كل

قارئ لذلك الفكر ذلك الفصل الحاسم بينه وبين أسسه وضوابطه وقواعده، وهي الوحي الإلهي الممثل في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. (29)

وفي نظرة متأملة لتاريخنا الزاهر نجد أن أمتنا قد نهضت وارتقت وأسهمت عندما كان الفكر المعتدل المتوازن، المنسجم مع ذاته، المتسق مع النواميس الكونية، المحترم للعقل، البعيد عن الشطط والغلو والإفراط والتفريط هو الفكر السائد والمتداول... ولما غاب هذا الفكر استنزفت طاقات الأمة بالصراع والكرهية، وقُوض أمن الأفراد والمجتمعات، وغرق العالم الإسلامي في أمواج الفتنة والانقسام والتمزق، وتخلف عن ركب الحضارة، وسارت سفن التقدم والازدهار بعيداً عن شواطئ أمتنا.

إنّ أمتنا عانت وما زالت تعاني اختلال فكر البعض، الذي انتقل من دائرة التكفير إلى خانة التفجير، فغدا يفجر الدماء والأنفس والأموال والمنشآت، ويحيل سكينة المجتمعات وطمأنينتها إلى بؤر من الاحتقان والتوتر، ولذلك لا بدّ لتيار الوسطية من أن يعمل على تخفيف منابع الغلو بالتعرف إلى أسبابها ومكوناتها، ثم على تخفيفها برؤية موضوعية علمية فيها اتصال بالأصل وانتماء إلى العصر، ثبات على الأهداف ومرونة في الوسائل، جمع بين الأصالة والمعاصرة، نقد التراث من غير تقديس ولا تبخيس ولا نقسم الناس بين قديس أو إبليس. ولأن الحياة يعتريها تغيير مستمر، وتعتريها تقلبات دائمة، لذلك تأبى وسطية الإسلام الانفصال عن العصر وعدم معرفة ما يدور فيه فالحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها فهو أحق به (30)

والله الموفق وهو الهادي الى سواء السبيل

كتبه /ضاحي ابراهيم سلطان

مصر – مارس 2015

---

(29) مدخل في مفهوم الفكر الاسلامي بحث منشور على الانترنت بدون ذكر اسم الباحث المصدر. <http://www.cirtaspace.com>

(30) مروان الفاعوري من كلمته في افتتاح المنتدى العالمي للوسطية ص 10، 12 بتصرف يسير

